إمام
قصة قصيرة
تأليف
حسين السنبختي

إمــام

قصة قصيرة

تأليف

حسين السنبختي

«الله أكبر يا ناس! الله أكبر يا أهل الحي! مفيش حد في المسجد غيري! حد ييجي يقف بيا إمام عشان نصلي فرض ربنا.»

أستطيع أن أقول أنّ كُلّ شيءٍ قد بدأ منذ هذا النّداء المصحوب بصخب صفير مكبِّر الصّوت التّالف، نداء صدقي عامل المسجد ومؤذِّن المسجد في الوقت ذاته، كم أفزعني وآذاني صوت هذا الرّجل حين يؤذِّن بقباحة إلقائه وفداحة أخطائه، «أقبر اللهُ حِسَّكَ يا صدقي»، أردِّد دومًا حين أسمعه يكبِّر قالبًا الكاف قافًا، لكنّ نداءه هذا أفزعني وآلمني على نحوٍ مختلفٍ، وآلم أذني مكبِّر الصّوت الصّارخ بعلوٍ كتحذير كوارثٍ، فكّرت سريعًا، هل أذهب؟ أحفظ بإتقانٍ تامٍّ قِصار سور القرآن العظيم جميعها، وأجيد التّجويد، لكنّ ثلاثين دقيقةً قد مرَّت مذ صلّيت المغرب منفردًا في بيتي مذ أذَّن هذا الرّجل بصوته السّيئ، أأذهب لأنقذ هذا الموقف فأكون قد صلّيت المغرب مرتين؟! أأذهب وأكون الإمام؟ طريقي مِن بيتي إلى المسجد ممتلئٌ ببقعٍ مظلمةٍ وبحُفَرٍ ومَطبّاتٍ، لكنّي قطعته سريعًا وبخطواتٍ واسعةٍ متعجِّلةٍ، وقبل وصولي إلى باب المسجد تناهى إلى سمعي صخب تداخل أصواتٍ ما يلبث أنّ يقطعها ويهدِّئ مِن جلبتها تكبير إقامة صدقي العامل، أقبر اللهُ حسّك يا صدقي، يبدو

أنّ أحدهم قد استجاب لندائك وحضر للإمامة، لا حاجة لحضوري الآن. لو توقفت فجأةً وعدت مِن حيث أتيت لكان منظري لافتًا مخجلًا؛ فاستحييت أن أرجع وأكملت بخطواتٍ مبطئةٍ تجاه المسجد ودخلته في اللّحظة الّتي كان الإمام يكبِّر تكبيرة الإحرام بحماسٍ لَمْ يخفِ ارتباكًا، وهالني أنّ المسجد كان مكتظًّا كصلاة عيدٍ! أكان المسجد خاويًا فعلًا أم أنّها خدعةٌ مِن صدقي العامل يبغي منها الحشد وملء المسجد بالنّاس؟! دخلت في الصّلاة، الصّلاة في المسجد فرضٌ لسببٍ وجيهٍ، أشعر أنّني أصلِّي حقًا مقارنةً بصلاتي الفرض نفسه في المنزل منذ قليلٍ. الرّجل الّذي يقف إمامًا ذو صوتٍ غير جميلٍ، ولكنّه خاشعٌ ومقبولٌ، تلعثم أكثر مِن مرةٍ، ولكنّه لَمْ يخطئ في القراءة أو التّجويد، وهذا شيءٌ عظيمٌ ونادرٌ لَمْ أعتد عليه حتى مِن الشّيخ إمام المسجد القديم. بعد الصّلاة عرفت أنّ المسجد فعلًا كان خاليًا إلّا مِن صدقي، وقد هُرِع النّاس لنداء العامل، كُلٌّ فزع إلى المكان ينوي إنقاذ إقامة الفرض بالوقوف إمامٍ، معظمهم صرّح باستعداده ورغبته في الإمامة، لكن في النّهاية أكثر مِن نصف الّذين حضروا اختاروا هذا الرّجل ليقف إمامًا، اختلافاتٌ ومناوشاتٌ أضاعت مزيدًا مِن الوقت وانتهت بأن قدّموه، العتمة الّتي حلّت وفرض الغروب الّذي تأخّر والعِشاء الّتي قرب وقتها جعلهم جميعًا

يقبلون على مضضٍ بالرّجل المتعلِّم والحافظ للقرآن ويلجِّمون رغبتهم، وبدأت الصّلاة.

عدت إلى بيتي ونيتي العودة لصلاة العِشاء، لولا إصرار العامل على تسكير المسجد تنفيذًا للقرارات لكنّا انتظرناها داخله لقرب وقتها، كان سببي الثّاني للنزول للصّلاة شعوري بتقصيري في صلاة الجماعة الّتي هي فرض عينٍ بخلاف عادتي بصلاتي في المنزل منفردًا، ويمكنني أن أعدّ سببي الأوّل هو إنقاذ إقامة الفرض القادم؛ في حال لَمْ يعد الشّيخ إمام المسجد الغائب ووجد العامل نفسه وحيدًا كالفرض السّابق، وصدقي العامل بالكاد يحفظ الأذان ولا يصلح لأنّ يقف إمامًا، وفي الحقيقة هو لا يصلح لأن يؤذّن مِن الأساس؛ صوته يصمّ الآذان. رفع العامل أذان العِشاء بصوته وأخطائه، «أقبر اللهُ حِسَّكَ يا صدقي» ردّدتُ ولَمْ أتردّد أو أنتظر نداءه المتوقّع وتوجّهتُ مسرعًا، ودخلتُ المسجد، فأفزعني ما شاهدته وشهدته؛ الرّجل الّذي كان يقف إمامًا في الفرض السّابق يُجرجَر جرًّا ثُمّ يُحبَس في غرفةٍ ملحقةٍ بضريح المسجد، قدري الحارس هو مَن كان يفعل ذلك به، ويساعده آخرون، وصدقي العامل يتفرّج ويتمتم ثُمّ يقيم الصّلاة ويتقدّم قدري الحارس إمامًا وسط تشجيع البعض وسكوت آخرين خوفًا منه. كثيرون انسحبوا مِن الصّلاة، قبلها وفي أثنائها، غادروا المسجد قاطعين أو تاركين فرض اللّيل الأخير الّذي يبدأ بعده

يومٌ جديدٌ. يعمل قدري حارسَ أمنٍ على العمارة الكبيرة القائمة على ناصية الحيّ منذ زمنٍ بعيدٍ، أُختير لأنّ جسده وصوته ومشيته مدججون بمظاهر القوة والصّلابة والبطش، وعلاقاته وصِلاته قويّةٌ ومسيطرةٌ على شباب الحيّ المهابين العامل معظمهم كوسيطٍ أو موزِّعٍ أو بائعٍ لشتّى أصنافِ المخدِّرات وعدّة أصنافٍ مِن السّلاح، ومنذ وقف على مدخل العمارة كفرد أمنٍ لَمْ يره أحدٌ دون زيّ العمل، حتى أيام الجُمَع، يصلِّي بزيّه فرض الجمعة رغم إجازته، كان الرّجل يقدِّس زيّه لدرجة أنّه -بحسب كلام أحد أقاربه- كان ينام مرتدِيه، وها هو الآن يأمّنا به. دخلت في الصّلاة، اقشعر جسدي مِن الذّعر الّذي انتابني مِن صوته الأجش القبيح، وكان يزداد قبحًا ونشاذًا كُلّما حاول تحسينه أو تلحينه، الكارثة الحقيقيّة كانت في أخطائه في الآيات نفسها وجهله التّامّ بأبسط قواعد النّحو والتّجويد، إنّ الرّجل لا يحفظ الإخلاص! السّورة القصيرة الّتي يعرفها ويحفظها الأطفال والكبار، والمتعلمون والأمّيون، والمتدينون والمتدنيون! والمصيبة الكبرى كانت أنّ أحدًا مِن المصلِّين لَمْ يردَّه ويصحِّح له، تذكّرتُ الرّجل الحافظ للقرآن، المحبوس بجوار مقام سيدنا القاضي المدفون، وتساءلت عن مصيره! بعد التّسليم تتابع النّاس يصافحون قدري ويدعون له بأن يفتح الله عليه! وأنا هُرِعت إلى بيتي ناويًا عدم العودة للصّلاة في المسجد. خطّاب الّذي كان يقف

على ناصية حيِّنا ليل نهار هو مَن أخبرني فيما بعد أنّ قدري الحارس ضبط الرّجل الّذي وقف إمام المغرب يتّفق مع أحد أقاربه ليبيع سجاد المسجد له، ووصفَه -بعد أن تنخَّم باصقًا عن يمينه- أنّه لَمْ يكن يَصلُح للإمامة مِن الأساس بسبب تلعثمه وتهتهته، كان خطّاب يُصرِف زبونًا باعه كيسًا مغلَقًا بعنايةٍ في حجم عقلةِ إصبعِ يدٍ وممتلئًا بمسحوقٍ أبيضَ قبل أن يستوقفني ويسألني:

- انته ليه معدتش بتصلي معانا يا أستاذ، ده المسجد بقى حاجة تانية دلوقتي.

منذ تلك اللّحظة أخذ خطّاب على عاتقه -ومِن مكانه المظلم أسفل أحد عواميدِ الحيّ المطفَأة- إقناع النّاس أنّ قدري الحارس قد أنقذ مسجد سيدي القاضي عبد الحيّ مِن الرّجل الخائن للحيّ وللدِّين. لَمْ أعلم ما الّذي كان يحدث في صلوات الفجر! فقد كنت أنفزع مِن نومي فزعتين! بسبب بشاعة زَعيق المؤذِّن الغريب بالغ القبح وبازغ الأخطاء في أذانَي الفجر؛ حتى تمنّيت لو يعود صدقي العامل يؤذِّن الفجر مِن جديدٍ، واضطررت أن أضع سدّادات أُذنٍ وأصلِّي الفجر صبحًا حين أصحو، وبعد ذلك صرت أستخدم سدّادات الأُذن في أوقات الصّلوات الجهريّة؛ إذ لَمْ أكن أطيق صوت وأداء وأخطاء المؤذِّن وقدري الحارس الّذي لا يحفظ الإخلاص، وخصوصًا بعد أن صار مكبِّر

صوت المسجد ذو دويٍّ واضحٍ عالٍ مِصداحٍ؛ إذ اشترى قدري الحارس واحدًا جديدًا، مِن ماله الخاصّ، كما أخبر خطّاب. ثُمَّ صِرتُ أعيش معظم وقتي في بيتي نائمًا أو مستيقظًا واضعًا سدّادات الأُذن.

فوّاز بقّال الحيّ أخبرني وهو يعطيني باقي ثمن الجُبْن الّذي اشتريته منه قبيل ظهر يومٍ قائظٍ أنّ الشّيخ إمام المسجد القديم قد عاد مجدّدًا بعد كُلّ هذه المدّة، رآه متّجهًا إلى المسجد وعرفه، رغم تغير ملامحه وملابسه غير الرّسميّة. أغار على أُذني صوت عامل المسجد يكبِّر بأذان الظُّهر، أقبر اللهُ حِسَّكَ يا صدقي! إنّ صوتَك -على قبحه- مستحسَنٌ بالنّسبة إلى مؤذِّني الفجر. وذهبتُ أصلِّي لأتأكّد هل عاد الإمام حقًّا أم لا؟! صحيحٌ أنّ الأوقاف لَمْ تتخذ إجراءً ضدّه في سرقة أموال الزّكاة والصّدقات بحجة عدم وجود دليلٍ، ولكن بعض أهالي الحيّ تربصوا به وضبطوه ذات يومٍ يفتح الصّندوق ويُفرِّغه في جيبه بعد آخر مرةٍ أَمّ النّاس فيها، طردوه مِن المسجد وفضحوه وشكوه مجدَّدًا إلى الأوقاف الّتي وعدت أنّها سوف تحقِّق في الأمر، تمنّيت رغم كرهي للإمام القديم أن يعود فيرحمنا مِن قدري الحارس وأصدقائه الّذين يؤذِّنون في صلاة الفجر بصوتٍ لا يُطاق وأخطاءٍ لا مثيلَ لها. رأيت الإمام بالفعل يصلِّي وسط النّاس السّنة الرّاتبة القَبليّة للظُّهر، فرِحتُ، أقام العامل الصّلاة، وزّع المصلون نظراتهم بين قدري الحارس الموجود

بالصّف الأوّل والإمام القديم، فنهض قدري الحارس مقدِّمًا الإمام القديم ووقف وراءه مباشرةً في الصّف الأوّل مثل ظِلٍّ، بدأت الصّلاة، لكنّني لَمْ أسمع صوته يكبِّر، كان صوته منخفِضًا لدرجة أنّه لَمْ يصلني وأنا أقف في الصّف الثّاني، وعند الرّكوع لَمْ أسمع له صوتًا أيضًا! ركعتُ مع الرّاكعين المرتبكين تواليًا بعد ركوع النّاس وكُلٌّ يستدلّ بركوع مَن بجواره ومَن قبله مثل قطع الدّومينو المتراصّة إذ تتوالى في الوقوع، كان ركوعًا طويلًا مقلقًا! بدا أنّه لن ينتهي، قدري الحارس هو مَن أنقذنا مِن النّوم أو ربما الموت على هذا الوضع، هكذا عبّر خطّاب لي فيما بعد وهو يضحك ويعدّد مواقف قدري الحارس، البطوليّة في نظره! ثُمَّ سمعتُ صوتٌ يقول «سمع الله لمَن حمد»، أخيرًا! لكنّه لَمْ يكن صوت الإمام. الّذي يصلّي والّذي لا يصلّي، الصّغير والكبير، الرّجال والنّساء، وحتى أهل الأحياء المجاورة.. الجميع محفورٌ في ذاكرته وأُذنه تحفظ وتميّز صوت هذا الإمام جيّدًا، كيف لا وهو أطول شيخٍ أَمّ مسجد سيدي القاضي عبد الحيّ منذ بنائه على قبر القاضي، كان الصّوت لقدري الحارس بنبرته الّتي راحت منذئذٍ تحفر وجودها في ذاكرتنا وآذاننا، في هذا اليوم أدرك قدري انخفاض صوت الإمام، فشرع يردّد هو التّكبيرات بصوته حتى ينتبه المصلون، وانقضت الصّلاة على هذا الحال. الّذين التّفوا حول الشّيخ الإمام القديم بعد الصّلاة فهموا مِن همسه

وصعوبة خروج صوته أنّ ثَمَّة خطبًا جللًا بأحباله الصّوتيّة، أو أنّه مريضٌ بمرضٍ عضالٍ، لأنّ صوته كان يخرج كفحيح ثعبانٍ يحتضر. الأمر نفسه حدث في صلاة العصر. وحينما غربت شمس هذا اليوم، صلّينا المغرب بإمامة قدري الحارس الّذي لا يحفظ الإخلاص ويتصنّع الخشوع بتكلُّفٍ مفضوحٍ، الشّيخ الإمام القديم المتزيِّي بزيٍّ غير رسميٍّ كان واقفًا بجوارنا في صفوف المصلِّين دون أن ننتبه له كثيرًا، وهو مَن قدّم قدري الحارس ليؤمّنا، وهو أوّل مِن مدّ إليه يديه بعد الصّلاة مصافحه باليمنى ومربِّتًا على كتفه باليسرى وداعيًا له بصوتٍ مبحوحٍ، وكنتُ أوّل مَن يخرج مِن المسجد مجدِّدًا نيتي الصّلاة في بيتي بعد ذلك.

يوم الجمعة كان فصلًا جديدًا فيما يحدث في مسجد حيِّنا! فالشّيخ الإمام القديم ما زال صوته مبحوحًا، يكلِّم النّاس بالإشارة، ويشير إلى رجلٍ بجواره يلبس جلبابًا أبيضَ بعد انتهاء صدقي مِن تنبيه النّاس بالأذان الأوّل، وكانت صدمتي حين رأيتُ قدري الحارس للمرّة الأولى قد تخلّى عن زيّه كحارس أمنٍ مرتديًا جلبابًا أبيضَ ناصعًا ويعتلي المنبر وتعتلي وجهَه الكالح ابتسامةٌ باردةٌ، يسلّم على النّاس فينطلق صدقي بالأذان الثّاني، لقد قال الرّجل يومها كلامًا لا يمتّ للدّين بصلةٍ ثُمَّ بإشارةٍ منه كبّر العامل وأقام الصّلاة، أقبر اللهُ

حِسَّكَ يا صدقي! وأمّنا الرّجل غير الحافظ للإخلاص بجلبابه الجديد وبصوته القبيح مصطَنع الخشوع.

مرّت الجمعة وراء الجمعة وصوت الإمام القديم مبحوحٌ، وقد صار الرّجل مصلِّيًا عاديًّا وسط المصلِّين لا ينتبه لوجوده أحدٌ، وبات قدري الحارس هو الإمام والخطيب ومقيم الشّعائر ومسؤول التّبرعات والزّكاة والصّدقات والمسؤول عن المسجد كُلِّه، كان في البداية يترك عمله ويأتي بزيّه كحارس أمنٍ قبيل الصّلاة ليؤمّ النّاس دون أن يتخلّف عن فرضٍ واحدٍ، ويوم الجمعة يكون خطيبًا وإمامًا بجلبابٍ أبيضَ ناصعٍ، لكنّه بعد ذلك أمسى لا يلبس إلّا الجلباب الأبيض طيلة الأسبوع ويجلس في المسجد كُلّ الوقت بغرفة الإمام، وانتشرت بالحيّ أقاويلُ مفادها أنّ اللهَ قد بسط الرّزق لعبده قدري كثيرًا بسبب تطوّعه لهذا العمل واستغنائه عن مهنته كحارس أمنٍ وتفرّغه لمسجد سيدنا القاضي عبد الحيّ ومسؤولياته. والحقّ يُقال لقد لمستُ وشاهدتُ بأُمّ عيني تغيّراتٍ لا تخفى على أحدٍ، فقد قاد الرّجل حملة تبرعاتٍ للمسجد في دروسه وخطبه وفي كُلّ وقتٍ وكُلّ مكانٍ، ومهَّد أرض الحيّ، وأضاء طريق المسجد، وغيّر سجاده، وبدّل صندوقه بآخرَ أضخمَ، وأصبحت كُلّ عواميد الحيّ مضيئةً بعد أن كانت منطفَأةً باستمرارٍ بسبب تهشّم لمباتها كُلّما غيّرتها البلديّة، وقد وضع أمام جميع محالّ ودكاكين الحيّ صندوقًا أخضرَ

صغيرًا مغلقًا بقفلٍ يملك مفتاحه، وكتب عليه بخطّ يده «تبرّعوا لمسجد سيدي القاضي عبد الحيّ»، وما انفك يعيد ويزيد ويشجّع ويطلب مِن أهل الحيّ في دروسه وخطبه التّبرُّع في الصّناديق التّابعة للمسجد، وكان يرفع صوته بالدّعاء في مكبِّر الصّوت في أثناء دروسه لأشخاصٍ بعينهم ويمتدحهم لتبرّعهم للمسجد. وقد بات الحيّ مضيئًا على نحوٍ باهرٍ حينما أعاد قدري دهان المسجد مِن الخارج باللّون الأبيض، موزِّعًا عددًا كبيرًا مِن اللّمبات الضّخمة المضيئة بالأخضر والأبيض على واجهة المسجد وفي أماكنَ متفرقةٍ مِن الحيّ. كان هذا هو السّبب الإضافيّ الّذي جعل فُتنة حرم السّيّد رمزي التّباع تتبرّع دوريًّا بمبلغٍ في صندوق المسجد، وتشجّع نساء الحيّ على التّبرُّع قائلةً لهنّ أنّهنّ أمسين يرحن ويجئن بحريةٍ وأمانٍ مطلقٍ، بعدما تخلّص الحيّ مِن ظلامه وعثراته بفضل جهود قدري الحارس، حتى كَثُر ذهاب وإياب نساء الحيّ، وبَدوْن أكثر تألُّقًا وجمالًا وتزيُّنًا وسط الأضواء الجديدة الباهرة. أمّا عن سبب فُتنة الأوّل، والّذي جعل نساء الحيّ كافةً يَحذُون حَذْوها؛ هو معالجة قدري الحارس لزوجها السّيّد رمزي التّباع، فقد كان زوجها -على حدّ وصفها- صعب المراس، صلب الرّأس، متشدِّد الرّأي، وليس كبقيّة أزواج مَن تعرفهم، «نفسي جوزي يبقه راجل طيب زي أبويا وزي باقي الرّجالة» هكذا قالت لقدري الحارس شاكيةً باكيةً، وبانت لقدري

أنّها على درجةٍ ما مِن الوعي والاطّلاع إذ تنهي دموعها وكلامها وتضيف مقتبسةً «إنّه نرجسيٌّ وذكوريٌّ». عددُ دروسٍ موجَّهةٍ بأعلى صوتٍ في مكبِّر الصّوت توصي الأزواج وتتكلَّم عن فضل الزّوجات، وعدّة زياراتٍ منتظماتٍ لبيتها قرأ قدري فيها رقيته على زوجها، وحجابٌ واحدٌ أعطاه للمرأة وضعته تحت وسادة زوجها باستمرارٍ، حلَّت مشكلة المرأة تمامًا؛ وانطلقت فُتنة تُوقِف وتقف مع النّساء بفرحٍ وانشراحٍ تحكي تجربتها وتطلب منهنّ التّبرّع لمسجد سيدي القاضي عبد الحيّ، وينصتون إليها بذهولٍ وفضولٍ مقارنين ومقرِّرين حين تخبرهنّ فُتنة بتفاصيلَ كثيرةٍ تنمّ عن أنّ زوجها قد أصبح رجلًا آخرَ. فيما بعد كافأته المرأة ببيع حليّها وسحب رصيدها مِن دفترها الخفيّ القديم بمكتب البريد البعيد الّذي ادخرته لأن أباها الخيّر الكريم -بحسب تأكيدها لزوجها الّذي لم يسأل ولبعض النّساء اللاتي سألن- كان يعطيها المال باستمرارٍ في المناسبات وغير المناسبات حبًّا وتقديرًا لها ولظروف زوجها؛ ومن ثَمّ اشترت سيارةً كتبتها باسمها وسلّمتها لزوجها كي يعمل عليها ويترك عمله كتبّاعٍ، بل وشُوهِد السّيّد رمزي -الّذي لَمْ يغادره لقب التّبّاع رغم ذلك- يسمح لفُتنة بالقيادة بعد تعلّمها، وقد صار ذلك مشروعًا إضافيًّا جلب لها مزيدًا مِن أموالٍ؛ إذ شرعت

المرأة تعلِّم مَن ترغبن في القيادة مِن الحيّ بمقابلٍ مخفَّضٍ، حتى لَمْ يبقَ أحدٌ مِن نساء الحيّ تقريبًا غير محترفاتٍ في ممارسة القيادة.

وانتشر في الحيّ أنّ قدري راح يساعد العوانس والمسحورات ويحلّ الرّبط بين الأزواج ويُخرِج الجنّ مِن الممسوسين والممسوسات ببركة إمامته وإخلاصه وصدقه وببركة سيّدنا القاضي عبد الحيّ، كُلّ بيوت الحيّ تقريبًا أضحت مفتوحةً له يدخلها باستمرارٍ وانتظامٍ، وبات مِن الطّبيعيّ سماع أصوات ضربٍ وزعقٍ وصراخٍ على إثر معالجته للنّاس، وازدياد حالات الطّلاق والخلاف بين الأزواج كان مِن شأنه زيادة الطّلب على قدري الحارس الّذي لا يتقاضى أجرًا ويحثّهم فقط على التّقرّب إلى الله بالتّبرّع في صندوق المسجد؛ لعلّ ذلك يفرّج كربتهم. وأمسى قدري يفوّت إمامة النّاس في بعض الصّلوات لانشغاله بعلاج الممسوسين والممسوسات، وقد راج في الحيّ أنّ انشغاله المتزايد مؤخَّرًا كان سببه الحقيقيّ أنّ قدري قد رأى الشّيخ العارف بالله القاضي عبد الحيّ في رؤيةٍ مناميّةٍ يخبره بوجود كنزٍ مدفونٍ تحت ضريحه بالمسجد، والرّجل مشكورًا يعمل على إخراجه لتوزيعه على أهل الحيّ، كما حكم وأمر وقضى القاضي عبد الحيّ. لكنّ وجه خطّاب تغيّر تحت ضوء العمود وصار ذا لونٍ أحمرَ محتقِنٍ كعينيه حين قاطعتُ كلامه في هذا الموضوع ذات يومٍ وسألته إن كان قدري حقًّا قد صار يمتلك العمارة

الّتي كان يحرسها قديمًا؟ وحذّرني مِن ترديد الشّائعات ومثل هذا الكلام، وإلّا أبلغ قدري. «مش كفاية مش بتصلي معانا في الجامع!» أنهى كلامه وهو يرميني بنظرة احتقارٍ، ثُمَّ بصق في الأرض وتركني ملبيًا نداء صدقي الّذي صدح صوته في مكبِّر الصّوت يخبر النّاس قبل أذانه مباشرةً: «الله أكبر يا أهل الحي! الله أكبر، اللي ييجي الجامع يتوضا في بيته عشان المايه لسه مقطوعة من الجامع»، «أقبر اللهُ حِسَّكَ يا صدقي».

اعتزلتُ في بيتي أصلّي منفردًا وأقرأ القرآن يوميًّا وحيدًا قراءةً صحيحةً بالتّجويد وتزيين الصّوت. ولكنّني ذات يومٍ، فتحتُ المصحف أقرأ وِردي كالعادة، فلم يخرج صوتي! خرج فحيحًا ضعيفًا! ظننتُ في البداية أنّه إجهادٌ لأحبالي الصّوتيّة لأنّني كنتُ أرفع صوتي بقوةٍ بقراءة القرآن -كعادتي- داخل جدران بيتي، لكن هالني استمرار ذلك لأيامٍ. فوّاز البقّال قرّب أُذنه مِنّي حتى ألصقها بفمي لكي يَسمَعني وأنا أخبره بفحيحٍ حاجتي إلى الجُبْن الّذي أشتريه منه على الدّوام، لكنّه عدّد لي بتباهٍ أنواعًا كثيرةً ومختلفةً مِن الجُبْن الجديد جلبها منذ وسّع دكان بقالته الصّغير فصار متجرًا كبيرًا بفضل مشاركة قدري له. حِرتُ قليلًا وفكّرتُ، ثُمَّ سرعان ما اخترتُ الجُبْن الدّبل، كان الرّجل يستأذنني مِن قبل، ولكنّه تلك المرّة أخبرني بجرأةٍ لَمْ أعهدها منه أنّه سيضع الباقي في صندوق المسجد الّذي أمام متجره، قال لي أنّ كُلّ

النّاس يفعلون ذلك الآن مِن أجل مسجدنا وحيِّنا، ودعا الله أن يكون ذلك سببًا في شفائي. وأكّد لي بعد أيامٍ وهو يمدني مجدَّدًا بالجُبْن الّذي أعشقه حين وجد صوتي يختفي أكثر أنّني مسحورٌ أو محسودٌ أو ممسوسٌ، وعليّ أن أذهب إلى قدري الحارس، وضع باقي ثمن الجُبْن في صندوق مسجد الحيّ أمامه دون أن يقول لي كلمةً واحدةً، ثُمَّ أخذ يحوقل مشفِقًا على صوتي الّذي اختفى بينما أختفي عن ناظريه.

وأستطيع أن أقول أنّ كُلّ شيءٍ قد بدأ ينتهي منذ ذاك اليوم؛ حين استيقظتُ ونظرتُ بالسّاعة فإذا بموعد أذان الظُّهر قد حان، استشعرتُ حلول سكونٍ غريبٍ كأنّه هدوء ليلٍ أليلٍ، انتظرتُ الأذان متمنِّيًا أن يؤذِّن صدقي بصوته الّذي يُعدّ رائعًا مقارنةً بهؤلاء المؤذِّنين أصحاب قدري، لكنّ أحدًا لَمْ يؤذِّن، وعندما قمتُ وتحرّكتُ شعرتُ كأنّني أعيش في سكونِ وصمتِ قاعِ بئرٍ سحيقٍ، صنبور المياه أفتحه فلا يَصدُر عنه ولا عن غسل وجهي بيدَي أيّ صوتٍ، المِذْيَاع المشتغِل دومًا على إذاعة القرآن الكريم لا أَسمَع منه تلاوةً أو توشيحًا رغم أنّني رفعت صوته حتى آخره، والسّاعة أخبرتني أنّ موعد أذان الظُّهر قد مَرّ؛ إنّني لا أَسمَع! ليس صوتي المبحوح هو ما لا أسمعه، بل كُلّ الأصوات: الأذان ومحطّة القرآن، أصوات العصافير والنّاس، وَقْع خطواتي وتحرّكاتي المرتبِكة وهاتفي الّذي سقط مِن يدي أرضًا وتكسّر؛

أُذناي لا يصلهما حِسٌّ ولا حسيسٌ! كأنّ فُتحتيهما قد سُدّتا بإسمنتٍ. يجب أن أذهب إلى الطّبيب، هُرِعت إلى باب شقتي أفتحه بعد ارتداء ملابسي وتلبُّسي بصمتٍ ثقيلٍ قاتلٍ، فوجدتُ أمام الباب فوّاز البقّال ومعه صدقي العامل وقدري الحارس، أفواههم وملامحهم تنطق في غضبٍ بشيءٍ ما لا أَسمعه ولا أفهمه، هل كانوا يقفون عند الباب يطرقونه منذ كثيرٍ؟! لا أفهم ماذا يريدون ولماذا أتوا إليّ! صوتي مختفٍ تمامًا ولا أسمعه أو أسمعهم فأشير إلى أُذني وحنجرتي وأفتح فمي بالكلمات المكتومة، يَخُشّون إلى البيت، أحاول إخبارهم بالإشارة أنّي ذاهبٌ إلى طبيبٍ يفحصني، يدفعني العامل والبقّال إلى الدّاخل، ويدخل وراءهم قدري قابضًا على عصا غليظةٍ! ويُغلِق الباب. ماذا يفعلون؟! فوّاز وصدقي على حين غِرَّةٍ يمسكان بي بقوةٍ ويقيّدان حركتي، وقدري يقترب بفمه مِن أُذني اليمنى فتلفحني أنفاسه الثّقيلة وأشتمّ بخر فمه العطن، ثُمَّ ما يلبث أن ينقضّ عليّ بعصاه، وحين أقاوم، يربطاني بأحبالٍ كانت معهم ثُمَّ يستكمل قدري الهمس في أُذني والضّرب على جسدي بتناوبٍ، وحينما أوشكتُ على الإغماء يتركوني مصفَّدًا بالحبال ويُرَبِّت فوّاز على كتفي ويقول بشفقةٍ شيئًا ما ثُمَّ يغادرون.

وما زالوا يأتون عقب ظهيرةِ كُلّ يومٍ ويحمل قدري عصاه الموجعة الّتي أراه يغيّرها في كُلّ مرّةٍ وأراها تزداد غلظةً وقوةً، يكرّر همسه أو نفثه في

أُذني، ولا يتوانى أو يفتر أو يتعب عن ضربي. لو يعود إليّ سمعي؛ لعلِمت هل همسه في أُذني غرضه رقياي أم توبيخي وسبّي، ولو يعود إليّ صوتي؛ لسألته لماذا يفعل هذا بي؟! هل نبّأه خطّاب بكلامي عن عمارته المملوكة له؟ أم أَخبره فوّاز بشكوكه في مَسّي بسحرٍ أو حسدٍ أو جنٍّ؟

كَم مَرّ عليّ على هذا الحال؟! ومتى توقف تفكيري وسؤالي الحائر «هل قدري يعالجني حقًّا أم يبطش بي ويعاقبني لسببٍ أو غرضٍ ما؟!»؟ عشرة أيامٍ؟! إثنى عشر يومًا؟! أم واحدٌ وسبعون يومًا؟! أم هي سنواتٌ ليست أيّامًا؟! لا أعلم أو أتذكّر أو أهتمّ؛ لقد بتُّ كمقبورٍ حيٍّ بين حوائط بيتي، مقبورٍ في قيدي، مقبورٍ في صمتي وفي صممي، مقبورٍ في جُوعي المتفاقم والفاتك بي الآن ببطءٍ تامٍّ.

#حسين_السنبختي

يناير 2023

<u>للتقسم وإبداء الرأي بالقصة على موقع جودريدز</u>

https://www.goodreads.com/book/show/75715628